ضحايا محاكم التفتيش

من العلماء والمفكرين

للدكتور علي مظهر

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين
لايعلمون أم هل« تستوى الظلمات والنور »
قرآن كريم

يموت من الناس المئات والألوف فلا يكاد يذكرهم إلا ذوو قرابتهم أو من كانوا في جيرتهم ومن عرفهم ثم يتناساهم هؤلاء أيضاً بعد زمن وجيز.

أما إذا مات عظيم من العظماء أو كبير من الكبراء أو عالم من العلماء أو مفكر باحث غزير المادة قوي الجنان، فعندها يشعر الناس برنة الأسى والأسف تتردد في الأرجاء دانيها وقاصيها، وتهتز أوتار القلوب حزناً، حتى قلوب من لاقرابة له به أو من لا لحمة نسب له به أصلاً ، إلا صلة العلم والتفكير ونشدان المثل الأعلى للحياة الروحية، ولا يزال الناس يذكرون ذلك العظيم ويرددون اسمه .

والعظيم في رأينا من أفاد الناس بتجارب علمه أو بما بذله من جهود صادقة لخير الإنسانية ومنفعة البشر، وضحى في سبيل ذلك بقواه وما أوتي من بأس وما أنعم الله عليه به من نفيس في هذه الحياة .

وكذلك قد رفع الله الناس درجات بعضها فوق بعض في الحياة الدنيا ، وجعل لهم منازل من الذكر الطويل والأثر الذي يمتد بعدهم إلى القرون وآلاف السنين بعد أن يسترجعوا الراحة الكبرى .

والحق أن موت عالم كبير خسارة عظيمة دونها موت الألوف ممن عاشوا وماتوا ولم يكونوا إلا كأدوات متحركة إذا قاموا، أو خشب مسندة ونصب نخرة إذا قعدوا، وذلك راجع إلى أن تكوين عالم يحتاج إلى مجهود كبير حتى يصل إلى درجة من العلم ، دع عنك ما يجب أن يكون له من استعداد للنبوغ أو ميل إلى التفكير والبحث .

وأيسر لك أن تجد الألوف من الأكرة ومئات الألوف من العمال وصغار الكتبة في الدواوين والمكاتب، من أن تعثر على عالم أفاد الإنسانية كإديسون مثلاً ، أو فيلسوف ككانط. ومن السهل

أن تلك الأمهات أولاداً لا يصلحون إلا للأعمال العادية فى الحياة من أن تلك الأمة بأسرها واحداً كمن ذكرنا يكون له مثل ذلك الجلد والصبر على التعليم والعمل والتفكير والاختراع وعلى إخراج ما بعقله من كنوز وما بذهنه من عصير يكون فيه الشفاء للناس والنفع للبشر .

والعلماء والمفكرون للناس عامة لا لأوطانهم التى ينسبون إليها . فهم حق مشاع الإنسانية تنتفع بمجهوداتهم ، وما أوتوا من نبوغ وما رزقوا من جلد وصبر للوصول إلى ما يمكن الوصول إليه بعد البحث والتفكير .

والعلماء والمفكرون للناس عامة لا لبنى ملتهم ودينهم حسب الذى ينتمون إليه أو ينسبون له ، فأيما عالم ظهر فى بلد ما جد إليه الطلاب من أقاصى البلدان ومن شتى الأديان للانتفاع بمواهبه وسماع ما يفيض به على الناس فى درسه ، وإذا ما احتفل به لمناسبة ما ، اشترك فى الاحتفال صنوف شتى من الناس لا يفرقهم دين أو مذهب لتكريم ذلك العالم . وإذا ما حل به رزء أو قضى أيامه فى هذه الحياة ، حزن الناس لمصابه وجزع الخلق من مصابهم فيه . ولا ترانا فى حاجة إلى دليل على ذلك ، فالأدلة عديدة حتى إنا لنرى من فضول القول الإتيان بشىء منها .

لهذا يرى الناس أن من العار على رجال التفتيش أن فعلوا ما فعلوا بالعلماء والمفكرين ، سيان كانوا من مسلمى جزيرة أيبريا أو من غيرهم ممن اعتنقوا ديانات أخرى ، إذ كان رجال التفتيش يضطهدون العلماء ويذيقونهم مر العذاب ويحرقون كتبهم ويكسرون أدواتهم ويحطمون بقاياهم ويضيقون على المفكرين ويدخلونهم السجون ويأمرون بحرقهم أحياء ، لا لسبب جنوه إلا أنهم بحثوا فى الفلك والحساب والطب ، أو أنهم درسوا الفلسفة والآداب ، أو قالوا برأى لا ينطبق وما رسخ فى عقول رجال التفتيش .

والغريب أن أولئك القساوسة الجهال المتعصبين عن ضلال وقلة معرفة ودراية ، فعلوا ما فعلوا بالمسلمين واليهود والمسيحيين أنفسهم فى أوروبا . ولما ذهبوا إلى أمريكا حرقوا نيفاً وأربعة آلاف كتاب دونت فيها علوم (المايا) وهم قوم من الهنود الحمر كانت لهم حضارة ولا زالت آثارهم تحدث من يراها عما كان لهم من قدم ثابتة فى العلم والعرفان ، مئات بل ألوف السنين فى أمريكا الوسطى . وبحرق أولئك القساوسة لتلك الكتب والمجلدات قضوا على حضارة المايا فى أمريكا الوسطى كما قضوا على حضارة المسلمين فى غرب أوروبا ، ولم يبقوا منها إلا آثاراً تنمى من بناها ، ومخلفات تشهد بنبوغ أصحابها .

كان (جوردانو برونو) عالماً فلكياً ظهر أثناء القرن السادس عشر الميلادى ، وقد مهد السبيل لمن جاء بعده من العلماء وأرباب الأرصاد وعشاق الفلك . قال جوردانو بدوران الأرض حول محورها وحول الشمس ، وذكر أشياء عن الكواكب السيارة ، وكانت له آراء فى عدم التناهى وامتداد

اللانهاية . وكانت هذه الأقوال والآراء تخالف آراء الكنيسة وتناقض أقوال رجال الكهنوت وقساوسة التفتيش، ولهذا قبض عليه رجال الديوان الذي كان في مدينة البندقية (فينسيا)، وأمروا بسجنه سنتين، ثم سلم إلى ديوان التفتيش الروماني فحكم عليه بالحرق حياً في الساحة العامة، ونفذ ذلك الحكم الوحشي سنة ١٥٩٨م (١٠٠٦-١٠٠٧ هـ) أيام البابا اكليمنصوس الثامن.

وفي ذلك القرن المذكور ظهر العلامة (دولت) وكان أيام (جورداتو)، واشتغل بالفلك والطباعة وقد تعلم بباريس وبادوا وفي طلوشة (تولوز بفرنسا).

وقبض على دولت وزج به في السجن وعمره أربع وعشرون سنة، وذلك لأنه طبع بضعة أوراق في المطبعة ومهرها باسمه ذكر بها بعض آراء فلسفية، وقال بوجوب البحث في أسرار الكون والخليقة، ثم أطلق سراحه بعد أن تشفع له أسقف ايكس، ولكن الديوان تعقبه وتتبعه ثم صدر أمر مجلس النواب بنفيه سنة ١٥٣٣ م توافق سنة ٩٤٠-٩٤١ هـ، فسافر إلى ليون وأذن له سنة ١٥٣٥م (٩٤٢-٩٤٣هـ) بطبع كتاب أسماه (بحث في اللغة اللاطينية). وأحاط به جماعة لقتله فدافع عن نفسه وقد أحاطوا به وهم شاهرون خناجرهم وقتل واحداً منهم وقبض عليه وزج به في السجن المظلم، وكانت ملكة نبرة (نافارا) معجبة بعلمه وتفكيره وكانت، تعلم أنه مظلوم فسعت حتى استصدرت أمراً من الملك بالإفراج عنه سنة ١٥٣٧م (٩٤٤-٩٤٥هـ) فعاد (دولت) إلى طبع الكتب الفلسفية والعقلية، فهال ذلك رجال الكنيسة فقبض عليه سنة ١٥٤٢م بتهمة الزندقة والإلحاد وزج به في سجن ديوان التفتيش خمسة عشر شهراً في باريس، وما زال يقبض عليه ويطلق سراحه حتى قبض عليه أخيراً وجيء به إلى مدرسة اللاهوت بباريس، واجتمع القساوسة وحكموا عليه بالإلحاد والكفر، لأنه قال بوجوب اتباع فلسفة أفلاطون، واتهم بتهمة إحداث ثورة في البلاد وخلع الملك، ولم يغن عنه دفاعه فحكم عليه بالموت، فشنق في السجن وجيء بجثته وأحرقت في أحد الميادين هناك، وكتبه معه، وصودرت ممتلكاته وكتبه، ولاقت زوجه وولده الصغير ما لاقيا من بؤس وشقاء.

أما (فانيني) فكان مفكراً وفيلسوفاً له آراء في الإلهيات والمادة، وله أقوال ونظريات فلكية، وكان من جماعة الماديين، وقد قبض عليه وحكم عليه في باريس بقطع اللسان، ثم بالإحراق وهو على قيد الحياة، وقد تم ذلك سنة ١٦١٩ م (سنة ١٠٢٩هـ).

وإليك نهاية عالم أخر: (دميان دي كيز) المولود في المخير بالبرتقال سنة ١٥٠١م، وكان يشبه لوثر في روحه وخروجه على التقاليد القديمة، وقد عين في عدة وظائف بالحكومة البرتقالية حتى عين سفيراً لها في هولاندا سنة ١٥٢٩ م (سنة ٩٣٦ — ٩٣٧هـ)، وكانت أمه هولندية، ثم استدعاه ملك البرتغال وصار كاتبه الخاص.

وحدثت بينه وبين أحد الكرادلة مناقشة فلاحظ الأخير عليه أنه لا يعتقد كثيراً فى عصمة الكنيسة الكاثوليكية، فشكا أمره إلى الملك ففصله من خدمته وعين آخر بدلاً منه. ولم يلبث أن اتهم بالإلحاد والزندقة فزج به فى سجن التفتيش، وقيل إن القمل غطى جسده وأكله حياً، ومات فى سنة ١٥٧٢ م (٩٧٩ — ٩٨٠ هـ)، وصادر الديوان كل ماله وضمه إليه .

وجاهرت سيدة تدعى بالسيدة (هايبتيا) — وكانت على درجة من العلم والتهذيب كبيرة — بأفكارها الحرة ، فقبض عليها وهى فى الكنيسة، وانهالوا عليها ضرباً حتى فاضت روحها وأمر القساوسة الجلاد بقطع جسدها أربعة أجزاء ففعل ذلك بفأس ! ! وقيل إنهم أطعموا القطع لكلاب المدينة .

أما (جاليليو) فله ذكر كبير عند أرباب الفلك والمشتغلين به، فقد كان عالماً كبيراً وفلكياً له أبحاثه وآراؤه فى الفلك والسيارات وحركاتها ورصدها وله تواليف فى علم الفلك والهندسة .

استدعى رجال التفتيش (جاليليو) سنة ١٦٠٥ م (١٠١٤ — ١٠١٥ هـ) وعدوا مؤلفاته الخاصة بدوران الأرض وما شاكل ذلك من أعظم الأعمال الإلحادية التى ليس بعدها من كفر، وأن آراء لوثر نفسه لا تعدل ما يراه هو ، وحكمت عليه محكمة التفتيش بالسجن مع التعذيب ، فعلق الحديد بعنقه وتولى جلادون تعذيبه ، ولما مثل أمام هيئة المحكمة جيء به عريان حافى القدمين ، ولكنه لم يرجع عن رأيه وربط إلى الجحش الخشبى وجلد وألبس فى رجليه حذاء حديدياً محمى له مسامير، وعذبوه حتى غلبه الألم فعدل عن رأيه ليرحموه فكفوا عنه العذاب ولكنه عاد وقال به مرة أخرى فأعادوا تعذيبه وسجنه ، ولم يشفقوا بشيخوخته وألزموه أن يعترف عن مخبأ كتبه لحرقها وفرضوا عليه قراءة سبعة مزامير كل يوم كفارة عن خطاياه !!

ورأى البابا اكليمنصوس السابع أن يطلق سراحه لئلا يقضى وهو فى سجونهم فيتخذ البروتستانت فى ألمانيا وانكلترا موته ذريعة للتشهير بالكنيسة، نظراً لبعد صيت جاليليو، وقد أجبر على أن يتعهد بعدم طبع كتبه الإلحادية فخرج وهو يخشى أن يعود إلى السجن .

وطورد الكونت (جيوفانى بيكو دللا ميراندولا) وكان أميراً إيطالياً، وكان له ولع بدراسة العلوم والفلسفة، وكان مفكراً كبيراً ، وقد ذاع ذكره وهو فتى صغير لبراعته فى العلوم براعة خارقة للعادة . وخشى بابا ذلك الحين منه ومن تفكيره ومن نظرياته وآرائه، وخشى أن يؤدى ذلك إلى هدم الكنيسة وإسقاط هيبتها من نفوس من اتبعوها وصدقوا كل ما قالت من غير تفكير أو بحث . وألفت لجنة لبحث آرائه فى الدين والعلوم والفلسفة وما أذاعه من آثار تفكيره، فرأى القساوسة أعضاء اللجنة أن آراءه كبيرة الخطر على الكنيسة وأن بها كفراً ومروقاً

عن آراء الكنيسة . كان كل ذلك وهو الشاب الذي لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره. ورد على قرار اللجنة بكتاب سنة ١٤٨٦ م ٨٩١ هـ يبرر فيه ما قاله وما فكر فيه . ورأى أن الخير في أن يذهب إلى إسبانيا. ونما الخبر إلى البابا فحتى أن يذيع الشاب آراءه ونظرياته في تلك البلاد، فكتب البابا للملكي إسبانيا (فرديناند وإزابلا) بذلك، وأن الشاب كافر خطر ، وأمر الملكين بالقبض عليه ومحاكمته أمام محاكم التفتيش . فاستعد الملك وسنحت فرصة للديوان لشحذ خناجره وآلات تعذيبه تأهباً للتشفي من المفكر الفيلسوف ؛ وعلم هو بذلك فعدل عن السفر إلى إسبانيا واتصل بآل مديشي بفير سابقة وكانوا حماة العلم والأدب في إيطاليا آيامئذ ، وعين أستاذاً للفلسفة هناك ونشر كتباً ورسائل، وتوفي صغيراً سنة ١٤٩٤م التي توافق سنة ٩٠٠-٩٠١هـ

وليس من قصدنا أن نأتي على ذكر كل من وقع فريسة لرجال التفتيش من العلماء والمفكرين ولكنا قصدنا إلى ذكر أمثلة قليلة لما كانت تفعله محاكم التفتيش من مآثم لا تعد ولا تحصى.

ومما يذكر في هذا الصدد أنه إذا ما وقف أحد العلماء أو أحد المفكرين الأحرار أمام محكمة التفتيش فإنه كان يجب عليه أن يخبر المحكمة عن آله وأصدقائه وعن كل انسان يظن أنه على شاكلته في الرأي ، وعن أماكن وجودهم وعن الكتب التي يطالعونها وعن مصادرها وعمن باعها لهم وعن أماكن اجتماعهم وعن محافلهم .

وبعد المحاكمة يؤخذ المسكين فتنفذ العقوبة التي كان رجال التفتيش يتفننون في كيفيتها أيما تفنن ؛ من ملء البطن بالماء ونخس المعذب بالدبابيس وحرق القدمين وتفتيت الأعضاء وتكسيرها وتمزيق الأعضاء والدفن على قيد الحياة وما عرف بجزاء العنيدات وحرق الجسم كله في ميدان فسيح أمام الجماهير وغير ذلك مما قد نعود إلى البسط في ذكره في فرصة أخرى. وقد ظل ذلك الديوان قائماً في إسبانيا وبلاد البرتقال وغيرها زهاء أربعمائة سنة دون انقطاع ؛ وقد خفضت شوكته في أوائل القرن التاسع عشر عقب الثورة الفرنسية والأمريكية .

ولا نحب أن ننسى ذكر ما أحرقه جماعات الوحوش المتبربرين من مئات المجلدات وآلاف الكتب التي أنتجتها عقول العلماء والمفكرين في جزيرة أيبريا وغيرها، وما رموا به إلى البحر والنهر فذهبت تلك المؤلفات الثمينة طعمة للنيران وللمياه، ولم ينتفعوا هم بها ولم يتركوا غيرهم بها ينتفع . ولو أن تلك المؤلفات أو بعضها وصل إلينا لوصلنا علم وفضل غزير ؛ ولكنها هي العقول الطائشة والأدمغة الفارغة من التقدير الصحيح للعلم والأدب، تقضي في سويعات على ما قضى فيه العلماء القرون ومئات السنين في التأليف والتحبير لفائدة الإنسانية وخير البشر .

علي مظهر